

بمناسبة العيد الوطني للرسالة

الرسالة في حياة الأدب

للأستاذ حامد حفني داود

في أوائل القرن التاسع عشر تخلصت مصر من نير العصور المملوكي والتركي، وانسلخت من حياة قاسية انحط فيها الأدب إلى الدرك الأسفل، واستقبلت عهداً جديداً في تاريخها أسس دعائمه محمد علي الكبير

وزخر العهد الجديد بالإصلاحات الكثيرة التي تناولت مرافق الحياة في مصر، وأخذ ركب الحياة يمضي في توبه الجديد. ولكن الحياة الأدبية في ذلك الوقت لم تنل حظاً كبيراً. فعلى الرغم من الإصلاحات العملية وعلى الرغم من التعليم المدني الذي بعثه محمد علي في فجر النهضة المصرية فإن الأدب المصري كان يمانى لونا من التفكك وضرباً من الجود

وقد شاهد العهد الجديد تغييراً كاملاً في الحياتين السياسية والاجتماعية، ولكن الشجرة الأدبية لم تؤت أكلها أو رسل غارها بالسرعة التي كنا نتظرها، لأن سياسة التعليم في ذلك الوقت وبالتالي

بطابع الجهاد الصحيح

كان زين العابدين بن الحسين يقول «كنا نعلم مغازي رسول الله كما نعلم السور من القرآن»، وكان إسماعيل بن محمد ابن سعد بن أبي وقاص يقول «كان أبي يعلمنا المغازي والسرايا ويقول يابني إنها شرف آبائكم. فلا تضيموا ذكراها»

وفي «جهاد النبي» .. حقاً. أغلى ما يتزود به الجيل المؤمن ليتخذ من حقائق التاريخ مقياساً متيناً لكل دعوة وغزوة، تنحل إزاءها حرب البطش والمدوان في التسييم والوسيط والحديث على السواء... وبالترية الجهادية تسمو النفوس، وتملو الرموس، وتنتظم الخطى، وتنسق الخطط، ويستبشر الشهداء في مضاجعهم بالذين لم يلحقوا بهم.. فنظفر بنصر من الله وفتح قريب

محمد محمود زرينورة

حياة الأدب لم تكن جميعها منبعثة من منبعها الطبيعي، وإنما كانت إصلاحات عامة يصدرها الحكام وخدمهم، ويحبس لها العلماء والأدباء ليسيروا بها سيرا مدرسياً بحثاً لا يتجاوز جدران المدرسة أو يعمدوا قوانين التعليم العام. أما الأدباء الطبعيون والشعراء الموهوبون الذين يستطيعون أن يعبروا عن ميولهم وميول الشعب ويرسمون حياتهم وحياة الشعب؟ والذين كان في مكنهم أن يضموا لبنة متينة تمثل مرحلة من مراحل الحياة الأدبية في ذلك الوقت — فلم يفتح الباب أمامهم ولم يعطوا الحرية الكافية ليصوروا الأدب المصري الرفيع كما ينبغي

وما كاد عقرب الزمن يطوى وراءه نصف قرن بعد محمد علي حتى اشتد الفارق بين الأدب الشعبي والأدب المدرسي. ثم أخذ الزمن يمضي وأخذت الأحداث تنقلب، وعاشت المدرسة في بيئة وعاش المجتمع في بيئة أخرى وازدادت الألسنة تلبلاً حين جندت الثقافات الأدبية في موطن واحد هو المدرسة، استعصت على الحياة وامتنت عن التفاعل بها

وتقدم الزمن ووقعت «الثورة الغرايية» وتدخلت أصابع الأجنبي لكبحها وقتلها. وشاء الله لها أن تموت وتقر في مهدها، ولكن جذورها النفسية وآثارها الأدبية لم تمت، فقد نهبت العقول الرائدة والنفوس الناعمة إلى الواجب الوطني، في الوقت الذي شعرت الأمة بضرورة التقريب بين الطبقات، وخشت على نحو الفوارق الاجتماعية التي لا يقرها الإسلام ولا تعترف بها المبادئ الإنسانية.

وقد كان لهذا الشعور العميق الذي شاع بين طبقات الشعب وعم أرجاء البلاد بعض الأثر في حياة الأدب. وكثيراً ما تكون الأحداث السياسية والثورات الوطنية مادة خصبة للبناء الأدبي ووقوداً صالحاً يشمل جذوة الحياة الأدبية بعد خودها الطويل. وقد ساعد على ذلك أن لاقى الثورة الأولى نفوساً صافية وقلوباً واعية وأرواحاً أبية وثابة تتأثر بما حولها وتعبر عن آلام الشعب وآماله. ثم انعكس شعاع هذه الثورة في الحياة الأدبية: انعكس في الخطابة فكان عبد الله التديم وأترابه، وغزاة دولة الشعر فكان البارودي وكانت مدرسته وهي أولى مناريس الشعر

ويوم تفقد الحلقة بين الأدب الرفيع وأدب الشعب تقع الطامة الكبرى على المجتمع وعلى القومية وعلى الدين وتصبح الحياة ضرباً من الترهات والتفكك والحوار السخيفة التي لا تحتمل ، وتصير الأمة أشبه بأميتين متباينتين متنافرتين في أمة واحدة

وقد كان من رحمة الله على مصر أن هذه الفترة لم تطل حين قيس لها بالأس جماعة من الأدباء حملوا لواء الحياة الأدبية . وتقدم هؤلاء صفوف الأدب وأخذوا يقرّبون بين الأدب الرفيع وأدب الشعب ويرسمون من المثاليين مثالا واحدا صادقا يصور التطور الصحيح ويتجانس مع الزمان والمكان

وقد كان الأستاذ الزيات في مقدمة هؤلاء نفر الذين قربوا الخطى ووحّدوا الصفوف ووسّعوا الميدان الأدبي وأفسحوا المجال الصحفي للطبعين القبوريين والموهوبين النسيين . كما كان في رسالته عون الشباب التوثب الكافح المتاضل العامل على رقع القواعد من المدرسة الأدبية المصرية . وهو من هؤلاء نفر الذين يقدرّون الشيء لذاته . فليس أكرم الأدباء في نظره أشهرهم ولا أسنهم ولا أغنائهم ولا أعظمهم جاهاً وشأناً ، وليس أرفعهم عنده أخلمهم ولا أصغرهم ولا أقرهم ولا أحقرهم مكانة ورتبة . إنما أكرمهم عنده أدبهم وأعلمهم . وهكذا لم يشأ الأستاذ الزيات أن يتخذ من المقاييس اللا إرادة مقاييس يقيس به الأدباء والعلماء . لقد أبقى الأستاذ في رسالته إلا أن يكون الناقد الحصيف الذي يحسن الاختيار ويصل إلى الأعماق في النقد ، ذلك لأنه يأتى إلا أن يحمل من الإرادة والإرادة وحدها مقاييس التزيه . أما هذه المقاييس التي تقوم على صفات عرضية لاحظ للإنسان فيها ولا قدرة له على توجيهها فهي مقاييس زائفة تافهة في نظره لأنها لا تمثل الحقيقة المجردة ولا نستقيم مع النقد التزيه ، ويمثل ذلك قوله تعالى في عكم كتابه « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فالتقوى وأمثالها جانب إرادي في حياة الإنسان . ولذلك صرح أن تعتبر مقاييساً في التفاضل الأخرى .

وفي ضوء هذا النهج السليم قرب الزيات بين الحياتين ووحدين الأديين حين جمل من الرسالة متبراً علماً يقتليه الأدباء لتواتهم وشخصياتهم لا لمناصبهم ومراتبهم ، يعتلونه على اختلاف مشاربهم وأهوائهم وميولهم وزعاتهم يعرضون مآلهم من بضاعة في

المعترف بها في عصر النهضة ، ونال الحياة الفكرية مانال الخطابة والشعر من تجديد ، وظهر ذلك واضحاً في شخصية الشيخ محمد عبده وأستاذه الشريف جمال الدين الأفغانى موقظ الشرق ومجدد القرن الرابع عشر

* * *

ولم يكد يمضى الزمن بالثورة المراهية ولم تكد تأخذ مكانها في سجل التاريخ حتى تمخضت عن مولود هو « ثورة ١٩١٩ » وقد أعادت هذه الثورة إلى الحياة المصرية سالف روحها وأجرت في شرايينها دماء الثورة الأولى والدعوة إلى التل . وهكذا تقدمت الحياة المصرية خطوة إلى الأمام بعد الثورة الثانية . وارتقى التعليم المدني تبعاً لذلك فغادر ميدان المدرسة إلى ميدان أرقى وأجل هو الجامعة المصرية القديمة . وقد كان الغرض الأول من إنشائها تثبيت مكانة مصر السياسية والاجتماعية والأدبية

ومنذ ربع قرن تطورت الجامعة المصرية القديمة إلى وضعها الجديد الذي بدأت خطوطه الأولى في جامعة فؤاد الأول . ولكن الحياة الأدبية الرفيعة التي كانت تدب في مصر في ذلك الوقت ظلت غائبة بين جنود الجامعة . أما المجتمع الخارجى الذي كان يتمثل في النوادي والجالس الأدبية - فلم يكن مقياساً صحيحاً يمثل ما عتور الأدب من تطور في ذلك الوقت ، وإن كان في ذاته يعتبر امتداداً طبيعياً لنوع من الحياة الأدبية الشعبية في تاريخ مصر . ولعلك تمجب أن يضطرب هذا التطور بين الجامعة والمجتمع وأن تختلف البعثان في رسم هذا الاتجاه وتحديد ذلك النما !!

كان ذلك منذ ربع قرن حين كانت الجامعة وكان الجامعيون يعيشون بين جنود الجامعة ويا رسون الأدب للجامعة ولأنفسهم قبل أن يدرسوه لخدمة المجتمع وأهله أو قبل أن يتحملوا عبء هذه الرسالة ويكلفوا أنفسهم مشقة عرضها على المجتمع في صورتها الجديدة . وهي الصورة التي كانت تسير الزمن وتسير الحياة الجديدة الناهضة في العالم كله

أعنى : كانت هناك حلقة مفقودة بين « الأدب الرفيع » في الجامعة و « الأدب الشعبي » في المجتمع . واستمرت هذه الفجوة السحيقة والمهولة الفخمة بين الأديين ردحا من الزمن مآلى خلالها الأدب المصرى لونا من التفكك وضرباً من الجلود الذي ذكرناه

إلى النفوس ، هو عهد الحرية والفضيلة ، عهد المدالة التي حطمت
 صخرة الطغيان وخلصت مصر من ربة الظلم والإثم والبهتان .
 ولعل من أجل الصدف وأحلاها في حياة الأقدار أن تفتتح الرسالة
 الألف الثانية من أعدادها في مفتتح هذا العهد الجديد . ذلك العهد
 الذي لا تزال الأعناق تشرب إليه احتراما وتعظيما وتحملق العيون
 فيه إكباراً وإجلالاً وتكريماً ، وقد خشت له أصوات المردة
 وارتفعت فيه صيحات الحق ، بمد أن ظل الناس زمناً يحآرون
 بالشكوى فلا يلتفت إليهم ويهيئون بالإصلاح فتداس حقوقهم
 وتحطم آمالهم

ما أجل أن تفتتح الرسالة ألقها الثاني في ذلك العهد الجديد
 وما أحرأها أن تسهم فيه بتصويبها في الإصلاح والتطهير والتجديد ،
 وأن تكتب عن ذلك كله وقد حمل صاحبها لواء الكتابة
 الإنشائية عشرين عاماً كاملة . فإكان الأدب الحر في أى عصر
 إلا سلاحاً ماضياً يدافع عن الأبطال المجاهدين وسيفاً مصلاً فوق
 رقاب الطغاة المتمردين . ألا إن حاجة الأمم إلى الكتاب وعذبات
 الأقلام ليس بأقل من حاجتها إلى القادة والقواد العظام .

هاجر صفى داود

الأدب والعلم والفن . ثم يطرحون ذلك كله أمام القراء الذين أقبلوا
 على الرسالة يتدافعون ويتزاحمون حين أدهشهم جلالها وأعجبهم
 اتساع صدرها وتمثيلها لجوانب الحياة الأدبية كلها . والقراء هم
 الحكومة النزيهة بين الرسالة وكتابتها . فهم وحدهم الذين يستطيعون
 بإخلاص أن يقولوا للمصيب أصبت وللخطي أخطأت . ثم
 هم يسجلون ذلك في بريدهم الأدبي . وهم وحدهم يستطيعون أن
 يعلنوا ويثبتوا البقاء للأصلح « فأما الريد فيذهب جفاء وأما ما ينفع
 الناس فيمكث في الأرض »

وهكذا ظلت « الرسالة والرواية » عشرين عاماً منذ
 خرجت إلى الناس تحمل عددها الأول وهي تؤدي في صدق وأمانة
 رسالة الحرية الكاملة في الأدب العربي المصري الحديث ولا تزال
 تؤدي هذه الرسالة إلى اليوم وستؤديها ما شاء الله لها أن تبقى .
 وهي في ذلك كله تعرض على اللائ الكتاب الأحرار المخلصين
 للحقائق المجردة ، وترسم أمام الناس صوراً صادقة لتطور المقالة
 الأدبية والشعر الحديث والقصة الحديثة . وهي إلى جانب هذا
 وذاك تعتبر سجلاً لطيفاً يصور التاريخ الأدبي المصري وما يعتره
 من نماء وتطور أسبوعاً فأسبوعاً . ولولا عنصر الصدق الذي استازت
 به في أداء رسالة الأدب لعصفت بها يد الزمان ولحطمتها معاطب
 الحداث .

نعم إنها ظلت تناضل مع الزمن وتصور الحياة الأدبية المصرية
 في غير تكلف ولا تعسف . كما استطاعت بفضل عناصر : الصدق
 والدقة والإحاطة أن تصبح مرآة عامة تنعكس عليها آداب مصر
 والعراق وآداب الأقطار الشقيقة ، وأن تستجيب لذلك كله لما
 وجدت من القراء في الأقطار الشقيقة من يمد لها الطريق ويمينها
 على أداء رسالة العربية وآدابها . فالرسالة — في نظر النهج العلمي
 الحديث — هي الأدب الحى المعاصر .. والأدب الحى المعاصر هو
 الرسالة :

واليوم شاءت الأقدار أن تحتفل الرسالة بمددها الألفى ، وأن
 تختم به عهداً قديماً في حياة مصر ، وأن تفتتح به عهداً جديداً حبيباً

فيلج الأدب العربي

للأستاذ أحمد حسن الزيات

يؤرخ الأدب العربي من عصر الجاهلية إلى هذا
 العصر بأسلوب قوى ، واستيعاب موجز ، وتحليل
 مفصل ، واختيار موفق ومقارنة بين الأدب العربي
 والآداب الأخرى

طبع خمس مرات في ٢٠٠٠ صفحة
 ونمته أربون لرشاً على أجرة البريد